من تراب الطريق (٣٩٧) بين ذعر الدنيا ونذير الآخرة(*)

لست أعرف أى شيطان أو وهم دعا أحد المنتظرين لمشاهدة مباراة كرة قدم للنادى الأهلى فى ستينيات القرن الماضى ـ بملعب مختار التتش بالجزيرة ، إبان أن كانت تقام عليه المباريات ، دعاه لأن يصيح وهو ينظر إلى برج الجزيرة .. «البرج بيقع» .. بدأت الصيحة فى مدرجات الدرجة الثالثة ، وسرت كسريان النار فى الهشيم إلى باقى المدرجات .. وكنت ضمن الجالسين فى مدرج الأعضاء .. تصادف أن كانت سحابة تمر من خلف البرج ، فهيىء للناظرين فى هلعهم المذعور ـ أن البرج يميل بالفعل ويقع ، فاندفعت الجموع بلا عقل تريد الفرار من مرمى وقوع البرج بارتفاعه الهائل .. لم تمض موجات الذعر طويلا ، فسرعان ما تصايح بعض العقلاء فردوا العقل والأمان للجماهير التى سادتها روح القطيع ، ولكن هذه المدة القصيرة كانت كافية لإصابة كثيرين على القمم المدببة للسور الحديدى أثناء محاولاتهم القفز من فوقه ، فضلا عن البشر الذين داستهم الأقدام أثناء الفرار المجنون .. وقيل يومها ـ ولم أتأكد ـ أن أحد المصابين توفى فيما بعد متأثرا بإصابة عميقة فى بطنه التى بُقرت وظل معلقا منها وهو متشعبط يريد اجتياز السور الحديدى الذى يحول بينه وبين النجاة من الموت القادم من برج الجزيرة !

(*) المال ١/ ٢/ ٢٠١٠

تذكرت هذا المشهد بعد سنوات ، ذكرنى به الأستاذ العبقرى الفذ يحيى حقى فى إحدى مقالاته المجموعة فى كتابه : «من باب العشم» .. كان قد مضى على الحادث زهاء عشرين عاما وأنا أقرأ يحيى حقى فى ٢٨/ ٥/ ١٩٨٨ (كالتأشيرة التى وجدتها كعادتى على الكتاب) .. ولكن ضراوة «الذعر الأعمى» التى وصفها يحيى حقى ، دعتنى لاسترجاع ضراوة ذعرٍ مبصرة رواها القرآن الحكيم ، وأخرى رمزية متوقعة تَحَدَّثَ عنها ووصف بها ما سيحدث يوم القيامة !!

جاء بالقرآن بسورة العنكبوت : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٤، ١٥] .. ووصف فى سورة هود ما كان من أمر المغرقين حين فار الطوفان وصارت الأمواج كالجبال ، فأخذت نوحا عاطفة الأبوة فنادى إبنه وكان فى معزل: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود:٤٢] ، ولكن لجاجة وعناد الكفر أخذا منه عقله ، فقال لأبيه فيما رواه القرآن : ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣] .. فلما نادى نوح ربه أن ابنه من أهله وأن وعد الله حق وهو أحكم الحاكمين ، جاء الرد الذى ترويه الآيات : ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦].

هين ويسير أمر الطوفان وما صاحبه من ذعر المغرقين ، إذا ما قيس بذعر الكافرين يوم القيامة من هول ما سوف يرونه .. يقول الحكم الخبير فى كتابه المبين : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٤٢] .

جزع يوم الهول الأعظم ، إذا جاءت الصَّاخَّة ، وهى صيحة تصم الآذان يوم القيامة لشدتها .. جزع حقيقى مهول لا مريّة ولا خيال ولا شبهة فيه .. جزع يأخذ كل امرئٍ من خاصة أهله الذين تعلق بهم فى دنياه .. من أبيه وأمه اللذين كانا وسيلة الإتيان به إلى الدنيا ، وأوصاه بهم القرآن إحسانا ، ومن أخيه الذى مَنّ الله عليه به فكان سنده ورَدْءه وعونه ، ومن صاحبته التى عاش على حبها وأعطاها قلبه عواطفه وبرّه واهتمامه ، بل يأخذه الخوف والهلع فيفر حتى من بنيه الذين كان يباهى بهم الدنيا ، وعاش مشغولا بهم معنيا بأحوالهم صارفًا العمر والمجهود والمال فى تنشئتهم والنهوض بهم وإفساح المجال فى الدنيا لهم .. ولكنه حين تجىء الصّاخة ، يأخذه الهلع من كل جانب ، فلا يَعُدْ ملتفتا إلاّ إلى نفسه ، لا يرى سواها ، ولا يشعر بغيرها من هول ما يراه .. يفر من أبيه وأمه وأخيه ، ومن صاحبته وبنيه .. أمام هول الحاقة ، تهون كل عذابات ومتاعب وأثقال وأوجاع الدنيا .. يروى لنا القرآن المجيد من أخذتهم الرجفة من كفار قوم صالح فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، ومن أخذتهم الرجفة من كفار مدين قوم

شعيب فصاروا كقوم صالح : موتى هامدين لا حراك لهم .. وقوم لوط الذين أبو إلاّ ما يريدون ، فأخذتهم الصيحة وجعل الله تعالى عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل .. والذين قالوا إن هى إلاّ حياتنا الدنيا نموت فيها ونحيا ولا بعث لنا ، فأخذتهم الصيحة بالحق وجعلهم الله تعالى هالكين كغثاء السيل .. وعادٌ الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق وظنوا أنه لم يوجد ولن يوجد من هو أشد منهم قوة ، فأرسل عليهم ربهم تبارك وتعالى ريحًا صرْصرًا وأذاقهم خزى الدنيا وتوعدهم بعذاب الآخرة ، وهو أخزى وأشد إذلالًا .. وثمود الذين هداهم سبحانه وتعالى فاستحبوا العَمَى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب المهين !!

يا لحال الإنسان فى عناده وتجبره وإعجابه بذاته وتيهه بنفسه وظنه فى قدراته .. وكم عَبَدَ ويعبد الناس أوثانٍ المال والجاه والسلطان ، وظنوا ويظنون بأنهم بمنأى عن تقلبات الأيام وبمنأى عن عذاب الله .. فى مثل هؤلاء قال جل شأنه : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧] .. سبحانه وتعالى : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت:٢١ ، ٢٢] .

*****